التفاهم

# تاريخ الثقافة الإسلامية والعولمة

بسام الكلباني

**ممّا لا شكَّ فيه أنَّ أوجه الاختلاف والتباين بين عالمية الإسلام والعولمة تكمنُ في أنَّ الاثنين قد وجدا للتأكيد على أنَّ الإنسان هو الركيزة الأساسية في هذا العالم، ولعلَّ أبرز خصائص الدين السماوي كونهُ منزلاً من عند الله غير قابل للخطأ وليسَ على غرار العولمة التي تعدُّ ابتكاراً إنسانياً وصنعةً بشرية تعملُ في أغلب الأحيان لتوافق شكلَ المجتمع والهوية والثقافة، وقد تبادرَ إلى أذهاننا – نحنُ العرب – قبل عقود من الزمن عن ماهية العولمة وأهدافها السياسية والاجتماعية والثقافية، وإذا ما كانت تُشكلُ خطراً على الهوية الإسلامية والعربية، ولمَّا تداركنا وأدركنا وجودَ التطابق الفعلي بين الإثنين، ظهرت تحديات من شأنها أن تعيقَ النمو المعرفي للثقافة الإسلامية، وأخرى هددّت وجود الهوية العربية.**

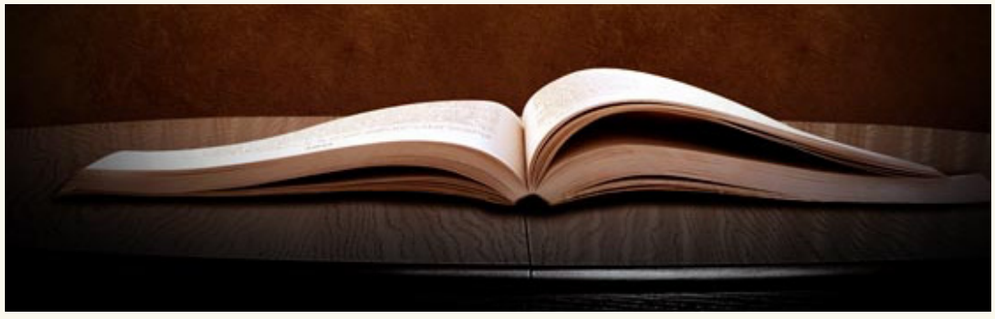



يَرى الكاتب السوري نبيل علي صالح في مقالته المعنوَنة "بين العولمة والعالمية الإسلامية" أنَّ التحديات الأساسَية التي تواجهُ فكرنا الإسلامي المعاصر (على مستوى دوره النوعي الكبير المتمثل في عمله الدائم على قضايا بناء الذات المسلمة، ومعالم الرسالة السماوَية الشاهدة على الناس والرسالات، ما يؤدي إلى إحقاق الحق والعدل، ودفع الباطل والظلم عن البشرية جمعاء) تنحصرُ في ثلاثة مظاهر حضارية روحية ومادية، وهي العولمة، والهويات الثقافية، ومجتمع الثورة المعلوماتية... ولذلك فإنّه من الضروري جداً بالنسبة لفكرنا الإسلامي الراهن وعي هذه الوقائع الجديدة، ودراستها، وتحليلها، واتخاذ المواقف الفعالة بشأنها، على اعتبار أنّ هناك ظروفاً مستجدة مختلفة تحكم تلك الوقائع، وتؤثر في صياغة المشهد الثقافي الإسلامي المستقبلي على مستوى ضرورة نقد الفكر الإسلامي، وتقييمه، وطرح رؤى وأفكار جديدة ترتب أَولوياته وخطوط عمله في المدَى الزمني القريب والبعيد؛ بحيث يؤدي ذلك إلى إعادة التأسيس الجديد لنهضة الأمة الإسلامية من خلال اعتمادها على الدين الإسلامي ذاته كمشروع ثقافي مركزي في حركيته الثقافية والحضارية المتجددة دائماً بتجدد الأيام والدهور.»

ولتحقيق تلك الأهداف وجَبَ إيجادُ تأسيس علمي لحضور الثقافة الإسلامية والهوية العربية في مختلف الميادين والمحافل الثقافية بشكل فاعل ومؤثر في ساحة الإنسان، ولو عُدنا إلى واقع الحضارات البشرية القديمة، وتتبعنا بدقة أساليب تطورها الحضاري فكرياً، فإننا سنجدُ أنَّ الحضارات التي حققّت تقدماً وقفزات واسعة في مسيرتها التاريخية في الجانب الفكري والصناعي والزراعي هي تلك الحضارات التي كانت تعتزُ بشخصيتها الثقافية وجذورها التاريخية وهويتها الحضارية المستقلة، فعَلى غرارِ الأسوار الأوريلية التي كانت تُحيطُ بحضارة روما من كلِّ حدبِ وصوب ؛ إلّا أن الانغلاق المعماري لم يشكل عائقاً على الانفتاح والتبادل الفكري والتجاري والحربي مع باقي الحضارات الأخرى الصديقة منها والعدوّة. وهنا يتبادرُ إلى أذهاننا سؤال: ما هي السُبل وطرق العمل الكفيلة بإخراج المشهد الثقافي الإسلامي المعاصر من حالة الاحتكاك والتلقي السلبي - كأحد سلبيات العولمة – إلى حالة الفعل والتأثير الإيجابي؟ وما هي واجباتُ المثقف الإسلامي تَجاه تلك التحديات والمتغيرات والتطورات العالمية الهائلة؟

أولاً : تحدي العولمة

تشيرُ كلمة العولمة إلى صيرورة وحركة دائمة متدفقة، وسيل جارف من المتغيرات غير المضبوطة في الشكل أو العنوان أو التوقيت، وبالرغم من حداثة المصطلح بالنسبة لنا، إلّا أننا لا يُمكننا اعتبارها - العولمة - دخيلةً على المنظومة البشرية، بل إنّ بداياتها التاريخية قديمة ابتدأت مع عصر الاكتشافات الجغرافية في القرن السادس عشر، وبروز ظاهرة الاستعمار في القرن التاسع عشر، اذ جَعَلَ الاستعمار كلَّ أرجاء المعمورة معروفة، فعملت - الاكتشافات التاريخية - على زيادة تواصلها التجاري وتبادل السلع بين مختلف البلدان والأمصار، إلى أن بدت التجارة العالمية بشكلها الحالي في توسع بفضل قاعدة البيانات والمعلومات والتقنية الحديثة التي جعلت من السوق العالمية ساحة حرّة ومفتوحة لكلِّ من يمتلكُ المال.

ويذكرُ القرآن الكريم في سورة الفرقان آية من شأنها أن تعلنَ صراحة عن عالمية الإسلام والرسالة المحمدية، حيث قال تعالى (تَبَارَكَ الَّذي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْده ليَكُونَ للْعَالَمينَ نَذيراً (، فالعولمة ليسَت كما عَرَفها الفيلسوف المَغربي محمد عابد الجابري حينَما وصفها بقوله " هي العمل على تعميم نمط حضاري يخص بلداً بعينه هو الولايات المتحدة الأمريكية بالذات على العالم أجمع"، كَما أنها ليست بذات السطحية ليلخصها شعوب المنطقة العربية على أن العولمة متشكّلة في غناء ورقصة مايكل جاكسون وسلسلة أفلام رامبو وسينما هوليوود والأهم من ذلك اللغة الإنجليزية باللكنة الأمريكية وحسب ؛ وإنما هي منظومة التواصل والاحتكاك والاشتباك مع باقي الحضارات والمذاهب والأفكار المتوازية والمتناقضة في آن واحد، فقد أصبحت العولمة واقعاً مفروضاً على المجتمعات البشرية كلها.

وقد أشيعَ سابقاً في مناهجنا العربية عن خطورة العولمة، الأمرُ الذي حتّم علينا أن نلحق الركب متأخرين، فرغم أن العولمة أصبحت جزءاً لا يتجزأ من هذا الكون وركناً أساسياً يُبطلُ التقدم إن فقدْ، إلّا أن الاتهامات لا تكاد تتوقف من أكثر الإفراد في المجتمعات العربية استفادة من العولمة، الأمر الذي جعل البعض يقومُ باختلاق شماعة لكلِّ متاهاتِ الأمة الإسلامية بأن باتت العولمة تصدرُ للناس الإلحاد والفساد الأخلاقي والشذوذ والانحراف والفوضى الجنسية والانتكاسات الروحية والانحطاط الثقافي.

ثانيا : تحدّي الهويات الثقافية أو العولمة في بعدها الثقافي

«تشكل الهوية الثقافية الحضارية لأي مجتمع من المجتمعات الإطار النفسي والفكري العام الذي يعبّر عن وجوده الاجتماعي وحراكه السياسي العلمي. إنها نتيجة طبيعية للتفاعل الحاصل بين مجموعة من العوامل الفكرية والمعرفية التي تحكمُ سلوك أعضاءه وتوجّه حركتهم، وتحدّد لهم مساراته المتعددة في الحياة، وعلى ضوء ذلك يمكن أن نعتبر الهوية الحضارية تعبيراً عن الناس عن إرادتهم، ووعيهم، وطبائعهم وأمزجتهم، وتصوراتهم عن الكون والوجود والحياة، في سياق تحديدها لطبيعة العلاقات الاجتماعية السائدة فيما بينهم، ومعايير السلوك ووسائل المشروعية، ونظام القيم واجب الاتباع. أو علاقتهم ببيئتهم، أو بعالم ما فوق الطبيعة، والمجتمعات الإسلامية تمتلك هوية حضارية خاصة تتميز بها عن غيرها من المجتمعات غير الإسلامية من خلال وجود نوعين من العناصر الثابتة والمتحركة، فالثابتة هي تلك التي أوجدها انتماء المجتمعات إلى الدائرة الحضارية والتاريخية الإسلامية وهي تشتمل على انتماء المسلمين إلى دائرة الإسلام. أما المتحركة فهي التي تتشكل نتيجة لما تكتسبه المجتمعات الإسلامية من خصائص ومزايا ثقافية بفعل عوامل ذاتية وموضوعية من داخل هذه المجتمعات أو خارجها، يساهم تفاعلها مع بعضها البعض بكل ما يحتويه الواقع من عناصر ومعطيات متغيرة. ومن هنا نطرح سؤالاً ملحّاً : هل تملك الثقافة العربية الإمكانيات والوسائل الخاصة التي تمكنها من التفاعل مع باقي الثقافات من موقع التكافؤ والندية والحوار، وليسَ من واقع الشجب والصراع؟

bassam.alkalbani@aiesec.net